



الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وتابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإنه مما لا شك فيه أن العقيدة ذات شأنٍ عند كل ذي بال؛ إذ الصحة أو الفساد في سلوك أو عبادة الجنس البشري مَنْوطة بصححة العقيدة وتابعة لها؛ لذا فإن اهتمام العلماء والمُرَبِّين بالعقيدة والتركيز عليها لم يأتِ من فراغ؛ بل لعوامل كثيرة لها أكبرُ الأثر في بناء الحضارات الإنسانية حيث كانت العقيدة سبباً رئيساً فيها؛ فالفرد إن اعتقاد شيئاً بعينه فإنه سيعمل ويبذل كل ما في وسعه لإيجاده وتحقيقه، ويقدم مُهجته رخيصة في سبيل إعلائه ونصرته وغلبته.

ولكي تكون هذه العقيدة فاعلة ومؤثرة في الأفراد والجماعات، ثم في بناء الحضارات؛ لا بد أن تتعامل مع الإنسان بشخصيته الإنسانية من جميع جوانبها وأبعادها المختلفة، فتجعل منها شخصية سوية، وهذه الشخصية السوية "لا تكون إلا من خلال العقيدة الدينية؛ سواء نظرنا في ذلك إلى معانٍ الحياة التي تقدمها هذه العقيدة أم إلى تحقيق طموح العقل والاستجابة لأشواق الروح التي توجد في رحاب الإيمان..."

والعقيدة أثرها في تحرير الإنسان من كل عوامل الخوف، وأثرها أيضاً في بناء الضمير أو الوازع الأخلاقي؛ مما يعدُّ في حقيقته استكمالاً لتلك الجوانب، أو إسهاماً مباشراً في تحقيق الشخصية الإنسانية السوية "[1]".

ويتم ذلك من خلال التعرف على آثارها، التي تُتَضَّحُ مما يلي:

أ - أثر العقيدة في الجانب العقلي: العقيدة أعلى أنواع غذاء العقل، وهو الغذاء النظري، وتشبع فيه التطلع الدائم إلى المبدأ والمصير، أو إلى العلة الأولى والغاية الأخيرة، والتي تقدم الإجابة الشافية التي تتلخص في إرشاده إلى الخالق، في حين عجز كلٌّ من العلم الفلسفـي أو العلم التجـريبي عن إرشادـه إليه سبحانه.

أما الفلسفة، فكانت إجاباتها النابعة من العقل الإنساني وحده ناقصةً أو مبتورة أو مشوهـة؛ حيث يعترـفـها متغيرـات على الفرد نفسه، أو حتى على المجتمع كـكل؛ ولـهـذا لم تستقرَّ على حال، ولا يزال التعديل والتـبـديل الذي يـلـحقـ بها كلـ يوم حيث يـمـلـيـ الفـلـاسـفـةـ المـخـلـفـونـ الـمـتـبـاـيـنـونـ عـبـرـ الـعـصـورـ [آراءـهـمـ]ـ؛ كلـ منـهـمـ يـدـلـيـ بـدـلوـهـ حـسـبـ عـقـلـهـ وـفـهـمـهـ، وـبـيـئـتـهـ وـمـجـمـعـهـ، وـنـظـرـتـهـ

للحياة والكون؛ حيث لا يعد فليسوفاً إلا إذا أضاف جديداً... أما العقيدة الإسلامية التي تتابع عليها الأنبياء، فهي واحدة من لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

أما العلم التجريبي، فعجزه أظهر من عجز الفلسفة؛ لأن موضوعه لا يتناول طرفي الوجود: المبدأ والغاية، وهو لا يُشبع العقل ولا يغذيه بأجوبة شافية؛ وذلك لأمرين:

الأول: العلم يحدثنا عن الشيء كيف يعمل؟ ولكن لا يحدثنا عنه لم ٰوجِد؟ ولمَ كان يعمل على هذا الوجه؟

الثاني: العلم يعجز عن رسم طريق الحياة المُثلَى للإنسان، وبيان ما يجب له أو عليه... إذ يقدم له الوسائل التي تخدمه، لكن لا يقدم له الغايات والقيم؛ فالعلم يتعامل مع الأشياء، لا مع المُثل والأفكار والقيم" [2].

ب - أثر العقيدة في الجانب الروحي: اهتم الإسلام بالروح اهتماماً بالغاً؛ وذلك لأنها في نظره مركز الكيان البشري، ونقطة ارتكازه، وهي وحْدها التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل، وهي وحْدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي؛ فهي تملك الاتصال بالله، كما أنها هي التي تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان" [3]. فالروح غيب، ومع ذلك اهتم الإسلام بتربيتها؛ لأن المشرع أعلم بكُنْهِها؛ ذلك "أن هذا الجانب أو البعد أساس وجود الإنسان؛ لأن الروح أساس وجود الإنسان، وأساس حياته، فإذا علمنا أن الروح غيب لا سبيل إلى الاطلاع عليه أو معرفة كُنْهِه في عالم الشهادة؛ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] – أدركنا أو جاز لنا أن نقول: إن الوجود الحقيقي للإنسان غيبى وليس مادياً؛ فأنا أتحرك وأتنفس وأدرج في عالم الشهادة؛ لأن جزءاً من عالم الغيب يعيش في داخلي، أو بعبارة أدق: أنا أعيش به... فالإيمان بالغيب – بالله واليوم الآخر – يجعل الإنسان منسجماً مع نفسه وخلقه" [4].

فحين يؤمن الإنسان بربه خالقه تسير الروح في طريق الفطرة، وعندئذ يلتقي الجزء بالكل؛ حيث الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر هو أساس الغيب، مع وجوده سبحانه حقيقة، وقد أعطانا جزءاً من غيبه حياً في أنفسنا، وليس بعيداً عنا؛ إشارة منه جل وعلا إلى أنَّ جزءاً من الغيب مع حي سيموت حتماً، ثم تعود الروح إلى بارئها فيصبح مَنْ فقدَها ميتاً.

لذلك فإنَّ البحث في الروح بُعد عن النجعة وخرص وشَطَطُ، والروح لها تعلق بما وراء الحس والظاهر؛ لذلك فالعقل يعلم بأن للعقل البشري والروح مدى في رؤية ما وراء الطبيعة؛ كرؤية العينين بمدى محدود لا يتجاوز إلا بمساعد من مكِّر أو غيره من الأجهزة... والعقل والروح لهما مساعد لفهم ما وراء الطبيعة والبحث فيما هو بعيد عن الحس والظاهر، وهذا المساعد هو الوحي: كتاباً وسنة، لقراءة آيات الكون هذا.

"والإسلام وهو يربى الروح يعمد إلى هذه الآيات فيبُثُ فيها الحياة: فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون، ويستشعر من ورائها بدَّ القدرة الفادحة الخلقة المبدعة" [5]، فحياة الإنسان بدون عقيدة تابعة للوحي تهديه السبيل لضبط مسار الروح والعقل – حياة في مجهول وتيه وراء غيبيات لا طائل وراءها؛ لأن العقل والروح بابتعادهما عن الوحي يسلكان طريقاً مخالفًا للفطرة، ومن ثم تستحيل الهدایة.

ج - أثر العقيدة في الجانب الجسمي: الجسم في دين الفطرة الإسلام له رعاية خاصة، وله تربية حَتَمية، ولو قصرَ الإنسان فيها يؤخذ على تقديره ذلك، و"حين نتحدث عن الجسم في مجال التربية، فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووسائله فحسب؛ وإنما نقصد كذلك الطاقة الحيوية المبنية من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس؛ طاقة الدوافع الفطرية، والنزوات والانفعالات، طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق" [6].

فإن الإنسان لأنه كائن فيه فطرة وغريزة؛ فإنه دائم الحاجة إلى إشباع فطرته وغريزته بما يتوافق مع طبعه وميوله، لذلك فالإسلام كدين الفطرة لم تأتِ أحکامه معارضةً لتلك الفطرة، أو فيها كبتٌ أو قهر للغريزة؛ بل هذبَت تلك الفطرة وكذلك الغريزة بما

يتواضع مع العيش حياةً طبيعية تابعة لهدى الوحي؛ فأعطي هذا الدينُ الجسمَ حقَّه كاملاً من المتعة والرغبة، وحرَم الرهبة وتعذيب الجسد، وكذلك حدد العلاقة بين الجنسين: الذكر والأنثى، بما يوافق العقل والفطرة.

وهكذا حرص الإسلام على الاهتمام بقوة أبدان أفراده، وشجعهم على القوة والصحة ودوام الطهارة؛ لتكامل حياته البشرية السوية، وفي الوحيين: الكتاب والسنة إرشاداتٌ إلى القوة والاهتمام بها، وإيحاءات لقوة الأنبياء عليهم السلام في القوة والسبق... فراعي كل الجوانب وهنها، وقوى الدوافع الإنسانية ليتكيف مع فطرته الإنسانية.

د - أثر العقيدة في تحرير الإنسان: الحرية في شريعتنا الغراء هي خالص للإنسان من العبودية القائمة على غير مستحق لها؛ سواء كان هذا المعبود إنساناً أو حيواناً، أو حجراً أو جماداً، أو حتى ملكاً أو رسولاً، فحين نتكلم عن أثر العقيدة في تحرير الإنسان إنما نقصد بهذا التحرير - من باب المجاز، وإن فالحرية عكس العبودية - تخليصه من تلك العبودية الزائفة لشيء يخشاه أو يخاف فواته، أو يتطلع إلى التحصل عليه وما ينبع عن ذلك من قياس خاطئ للقدر والكسب؛ بحيث تختل الموازين، فتحسن القبيح ويُقبح الحسن، فيجعل قتْلِ الغَيْلَة شجاعةً، والسرقة مهارةً، وشرب الخمر قوةً... وهكذا يلهث وراء سراب لا يفيده حصوله - إن حصَّله - بل يضرُّه.

والناس حينما تخيم عليهم عبودية ما، يسعون لها؛ فمنهم من يؤثر المنصب على غيره، ومنهم من لا هم له إلا شهواته وغرايشه، ومنهم من يخشى فقرًا أو زوال جاه لا يملكه هو ولا من سبقه... أهواه شتىً ومخاوف متعددة ومتباعدة، يسير طالبها نحوها مضحياً بأي شيء سواها، وهذا في الحقيقة خطأ؛ فالإنسان كفردٍ سويٍ لا تطغى عليه غرائزه فتدفعه إلى المرتبة الحيوانية، ولا يتحققها فيكون كالجماد... بل الوسطية هي الفطرة؛ حيث التوسط في استعمال واستغلال كل ما في الوجود بما يوافق العقل السليم والروح، وبما يحفظ جسده؛ فيكون بذلك متحررًا من عبودية أي شيء من الأشياء الباطلة، ويظل عبداً خالصاً لخالقه.

ه - أثر العقيدة في إيقاظ الواقع وإحياء الضمير: كل من الواقع والضمير يستخدمه الناس عند فعل شيء أو تركه، وكل فعله أو تركه به، ولكن هذا الواقع الذي يجعل صاحبه يُحِجِّم عن اقتراف شيء، وهكذا الضمير الذي يدفع أو يمنع صاحبه عن الإقدام - إنما هو كغيره من أعضاء جسم الإنسان؛ فلو نشأ إنسانٌ في بيئه ذات مفاهيمٍ ومُثُلٍ معينة، وتربى هذا الفرد على بعض السلوكيات - كما يرونهم، وليس في حقيقة الأمر - فعلاً أو تركاً، ثم سافر إلى بعض المجتمعات الأخرى - أو أتى إليه آتٍ - فإنه يحدث قطعاً تباعناً في مدى نظرة الأشخاص عن بعضها البعض؛ فمن تعود في بيئه معينة على أمر، فإنه يألفه ولا يرى ضرراً في فعله؛ لأن مجتمعه كله يراه أمراً عادياً، أما من جاء من مجتمع آخر فإنه سيختلف طبعه مع ذلك الفعل، وينبع منه تصور يخالف نظرة الآخر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن هناك من أقوام الأنبياء عليهم السلام من ألقوا معصية معينة، المجتمع كله لا يرى عيباً أو نقصاً في فعلها؛ بدءاً بأعظم الذنوب: الشرك، وانتهاءً بانعدام الحياة، وما بينهما من ارتكاب الفواحش، وقطع السبيل، والتطفيف في الميزان، وأكل أموال اليتامي، وغير ذلك...

لها يتساءل الإنسان المرتبط بوحي السماء:

ما دام لكل إنسان ضميرٌ ووازع، فأين ضمائر هؤلاء؟ وما الذي يحركهم إذًا؟ فيتساءل العاقل: الله تعالى وحده الذي يعلم من الذي يؤزِّهم أزاً! هذا مع وجود عبوديات باطلة لكن لم تكن تصدُّهم عن غيرهم، ومع وجود معتقدات باطلة فإن فعل الإنسان سببٌ ويلٌ، لكن لو كان هذا الضمير مُطعماً بوحي السماء فسيكون واحداً، سواء في أعلى مقامات العبودية، وهو التوحيد، وكذلك في الأخلاق والسلوك، وهذا بَيْنَ في الكتاب والسنة في مواضع عديدة:

منها على سبيل المثال من الكتاب ما يتعلق بالتوحيد: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، ذكر هذا ربُّنا بعد ذكره لملة

الأنبياء السابقين، فهاتان الآيتان تدلان على أن الإسلام ملة كل الأنبياء؛ فعندئذ يكون الوازع متحركاً يقظاً، ويكون الضمير حياً، فينفر صاحب هذا الوازع أو الضمير اليقظ من أي خدشٍ في عبودية الله عز وجل.

ومن السنة: قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما يُبعثُ لِتَمِّمِ صالح [وفي رواية: مكارم الأخلاق])[7]؛ ففي هذا الحديث يظهر أن كل الأنبياء السابقين دعوا أقوامهم لحسن الخلق، فلو تكلمنا مع صاحب ضمير مطعم بالوحى لاستجاب، لكن الضمير أو الوازع مع تغاير الزمان يكون دالاً صاحبه إلى الأمثل؛ لأن الضمير هنا يوافق الفطرة، وتتساوى صحته في كل مكان، ويقبله كل ذي عقل سليم من الشهوات أو الشبهات؛ بحيث لا يتغير مفهوم توقير الكبير من مكانٍ لآخر، أو احترام الوالدين أو طاعة أولي الأمر؛ لأن الفطرة توجب فعل ذلك لسير العملية الحياتية؛ لذلك فإن وجود عقيدة إيمانية منبتةٍ من وحي السماء ينتج عنها مانع للإنسان عن الشر بجميع أنواعه؛ بدءاً من الإشراك بالله، وانتهاءً بفعل ما هو خلاف الأولى.

هذا، وإن الضمير لو ترك بدون ضابطٍ شرعي فربما عبّرت به الأهواء والمخاوف؛ فيتغير فكر صاحبه وتصوره ونظرته للحياة، ظالماً أو مظلوماً، وسوف يبرر ويقول: عملتُ ما أملأه على ضميري، أو محاكاً لآخرين، وهذا يؤكد أن وازع الضمير ربما يكون في مجتمع معين عيباً وشيناً، وفي مجتمع آخر أمراً طيباً وكريماً!

وهذا يحثّ الانتباه إلى أن الوازع أو الضمير الحالى من نور الوحي إنما يتشكل ويكون من بيئته وثقافة أصحابه، فيتغير إلى حد كبير بهما، ويتأثر بمدلولات مفاهيم معينة من خلال سلوك أفراد مجتمعه، وهذا في الواقع والحياة ملموس؛ لذلك فإن "وازع الضمير الذي يتحدث عنه علماء الأخلاق لا يعني عن العقيدة والدين، بل إن هذا الوازع لا وجود له، أو لا يتسع نطاق وجوده حقيقة إلا عند المتدلين، وفي قاموس حياة المؤمنين، حتى إنه ليجب علينا أن نسميه بالوازع الإيماني أو الديني"[8]؛ إذ إنه نابع من عقيدة إيمانية دينية، وليس بتابعٍ من نفس، أو من حول الإنسان بعينه؛ ولذلك كانت النفس المرتبطة بوحي السماء أجرأ من غيرها من المخلوقات بأن تكون راعية وداعية لوازع الضمير في النفس الإنسانية.

وهذا يؤكد أهمية العقيدة، وما لها من تأثيرات إيجابية على الفرد والمجتمع.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، كلما ذكره الذاكرون، أو غفل عن ذكره الغافلون.

[1] د. عدنان محمد زرزور، نحو عقيدة إسلامية فاعلة، ص 10 بتصريف.

[2] نفس المرجع السابق، ص 10 – 13 بتصريف واختصار، الأستاذ محمد قطب، منهاج التربية الإسلامية، ج 1 ص 75 – 77.

[3] الأستاذ محمد قطب، منهاج التربية الإسلامية، ج 1 ص 41 – 42.

[4] د. عدنان زرزور، نحو عقيدة إسلامية فاعلة، ص 15 بتصريف.

[5] الأستاذ محمد قطب، منهاج التربية الإسلامية، ج 1 ص 45.

[6] نفس المرجع السابق، ص 104.

[7] صحيح: أخرجه الإمام أحمد في مسنده (8952)، والبخاري في الأدب المفرد، (273)، والبيهقي في سننه (10 / 191 – 192)، وفي شعب الإيمان (7978) وابن سعد في الطبقات (1 / 192)، والحاكم في مستدركه (2 / 670) وصححه ووافقه عليه النهبي وصححه الألباني.

[8] د. عدنان زرزور، نحو عقيدة إسلامية فاعلة، ص 19 – 20.

الألوكة

المصادر: